المحاضرة السادسة: الجملة الشّرطية وخصائصها.

المرجع:التراكيب الإسنادية: الجمل: الظرفية –الوصفية– الشرطية. لـ: علي أبو المكارم.

لعل أقدم من يرد إليه مصطلح: "الجملة الشرطية" جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المتوفى سنة ٥٣٨هـ، إذ إليه يعود فضل ابتكار هذا المصطلح من ناحية، وإقرار ما يمكن أن يعد اعترافاً باستقلال هذه الجملة في مقابل الأنواع الأخرى من الجملة العربية من ناحية أخرى[1].

وليس معنى ذلك أن النحاة السابقين لم يدركوا ما تتميز به هذه الجملة من خصائص، ولم يعرضوا لهذه الخصائص بالتقنين، فإن المأثورات النحوية تكشف بجلاء عن أن هؤلاء النحاة قد تناولوا بالبحث جوانب متعددة من هذه الجملة وقعدوا لها، بل إن بوسعك أن تستخلص من تراث هؤلاء النحاة ما يمكن أن يكون ضوابط شاملة لهذه الجملة وأحكامها، سواء في مجال دراسة العناصر الداخلة في تركيبها، أو في ميدان الروابط الداخلية بينها. بل إن هذه الضوابط تمتد إلى ميدان استعراض الاحتمالات الممكنة لتركيبها دون أن تقتصر على الوقوف عند الأساليب الواردة لها.

العناصر المكونة للجملة الشرطية ثلاثة:

- الأداة.
- تركيب فعل الشرط.
- تركيب الجواب أو الجزاء. بالنسبة للأداوات فهي مجموعتان جازمة وغير جازمة، وبيانها فيما يلي:

ـ أما أدوات المجموعة الأولى ـ وتتفق جميعا في تعليق الجواب على الشرط في الزمان المستقبل ـ فهي:

١ - (إن) ـ بكسر الهمزة وسكون النون ـ نحو قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾[٢].

٢ - (من) ـ بفتح الميم وسكون النون ـ نحو قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءا يجزبه﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿من يقترف حسنة نزدله فيها حسنا﴾[٤].

٣ - (ما) نحو قوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾[٥]، وقول الشاعر[٦]:

أرى العمر كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

٤ - (مهما) نحو قوله تعالى: ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾[٧]، قول حاتم الطائي[٨]:

٥ - (أي) ـ بتضعيف الياء ـ نحو قوله تعالى: ﴿قل ادعوى الله أو ادعوا الرحمن، أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على﴾[٢]، وقول الشاعر[٣]:

في أي نحو يميلوا دينه يمل

٦ - (متى) نحر قول سحيم بن وثيل[٤]:

أنا ابن جسلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

٧ - (أيان) نحو قول الشاعر[٧]:

أيان نؤمنك تأمن غيرنا وإذا لم تدرك الأمن منا لم تزل حذرا

٨ - (أين) نحو قول عبد الله بن همام السلولي[٨]:

أين تصرف بها العداة تجدنا نصرف العيس نحوها للتلاقي

٩ - (حيثما) نحو قوله الشاعر[١]:

حيثما تستقسم يقدر لك الله نجاحا في غابر الأزمان

١٠ - (إذ ما) نحو قول الشاعر[٢]:

وإنك إذ ما تأت ما أنت آمر به تلف من إياه تأمر آتيا

١١- (إذا ما) نحو قول الفرزدق[٤]:

يرفع لي خندف والله يرفع لي نارا إذا ما خمدت نيرانهم تقد

١٢- (أنيَّ) ـ بفتح الهمزة وتضعيف النون المفتوحة ـ نحو قول لبيد[٥]:

فأصبحت أنى تأتها تلتبس بها كلا مركبيها تحت رجليك شاجر

وأما أدوات المجموعة الثانية فهي:

١- (لو)، وتفيد تعليق الجواب على الشرط في المستقبل وإن خالف في ذلك بعض النحاة[٣]، نحو قول قيس بن الملوح[٤]:

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض سبسب

لظل صدى صوتي وإن كنت رمة لصوت صدى ليلي يهش ويطرب

٢- (لولا) وتفيد تعليق الجواب على الشرط في الزمان الماضي، نحو: لولا تضحيات الآباء لهلك الأبناء، فقد امتنع الجواب لتحقق الشرط في الماضي، ومن ذلك قول تميم بن مقبل[٣]:

لولا الحياء وباقي الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عورى

فقد امتنع عيبه إياهما لوجود الحياء والدين

٢- (لوما)، وهي بمنزلة (لولا) في إفادة تعليق الجواب على الشرط في الماضي، وفي الدلالة على الامتناع أيضا[٢]، خلافا لما ذهب إليه المالقي من عدم استخدامها دالة على التعليق[٣]، ومما يشهد لاستعمالها شرطية قول الشاعر[٤]:

لو ما الإصاخة للوشاة لكان لي من بعد سخطك في رضاك رجاء.

٣- (لما) وتفيد تعليق الجواب على الشرط في الزمان الماضي وقد شاع بين النحاة وصفها بأنها "حرف وجود لوجود. أو، حرف وجوب لوجوب"[٥] أي أن جوابها قد تحقق لتحقق شرطها، كما في قوله تعالى: ﴿**فلما نجاكم إلى البر أعرضتم**﴾[٦]، وقوله: ﴿**فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾[٧]، وقوله: ﴿**فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد**﴾[٨]،

٤- (إذا)، وتفيد تعليق الجواب على الشرط في المستقبل، نحو قوله تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا انتم تخرجون﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾[٢]، فإذا الأولى في الآيتين شرطية دلت على تعليق حصوله الجواب على حصول الشرط في المستقبل، ومن ذلك قول أبي ذؤيب[٣]:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

٥- (كيف)، وتفيد تعليق الجواب على الشرط في المستقبل آيضا، نحو: كيف تصنع أصنع ـ بالرفع فيهما على الراجح عند الجمهور[٦] ـ وهي وإن وافقت بقية أدوات الشرط في التعليق، فإنها تخالفها في وجوب موافقة لفظ الجواب للفظ فعل الشرط.

وقد تزاد عليها (ما) فتفيد بعد زيادتها ما كانت تفيده قبلها، وتستعمل في المواضع نفسها التي تستعمل فيها بدونها[٧].

خصائص الجملة الشرطية:

أولا: البساطة والتركيب: الجملة الشرطية دائما مركبة.

ثانيا: قابلية النسخ والتقييد:

لا تقبل الجملة الشرطية فى مجموعها - باعتبارها نموذجا تركيبيا متكاملا- التقييد بأى من النواسخ الحرفية أو الفعلية، ولكن كلا من طرفيها الإسناديين: من الفعل والجواب يمكن أن يقبل -على حدة- بعض هذه النواسخ. ولا نجد حرجا فى أن نسجل فى هذا المجال بعض الملحوظات حول الأساليب الواردة فى النصوص اللغوية للجملة الشرطية، عساها أن تكون مثار دراسة مستقبلا.

١- أن النواسخ الصالحة للدخول على أحد التركيبين الإسناديين للجملة الشرطية محصورة فى نطاق النواسخ الفعلية دون الحرفية.

٢- أن من النواسخ الفعلية ما لا يصلح لتقييد الفعل فى حين يجوز أن يقيد الجواب، كما أن منها ما يقيد الفعل وحده دون الجواب.

٣- أن هذه النواسخ- برغم ارتباطها نظريا بالجملة الاسمية أو الظرفية وبالتراكيب الواردة لها- فإنها حين تدخل فى نسيج الجملة الشرطية تعامل معاملة الأفعال التامة.

وبهذا يتضح أن الجملة الشرطية ذات وضع خاص فيما يتعلق بالاستخدامات السياقية للقيود الجملية.

* * *

ثالثا- قابلية الامتداد.

لا تقبل الجملة الشرطية فى مجموعها الامتداد، ومحاصرها الثلاثة من الأداة والفعل والجواب تتصف بالثبات ولا تقبل الزيادة ، بيد أن كلا من الطرفين الإسناديين فيها- وهما الفعل والجواب- يقبل منفردا الامتداد بكافة العناصر، سواء منها ما اتصف بالعموم كالظرف ، والمجرور، والحال أو اقتصر على وجود العنصر الفعلى، كالمفاعيل؛ إذ فى كل من الفعل والجواب عناصر فعلية بالضرورة بغض النظر عن تصنيف كل منها على وحدة.

ومقتضى هذا أن الجملة الشرطية متميزة حجما فى حدها الأدنى ، وفى حدودها القصوى وفقا للاحتمالات الممكنة الأمر الذى يمثل خصيصة من خصائصا.

* * *

رابعا- التطابق:

إذا وضعنا فى الاعتبار أن كلا من (الفعل) و(الجواب) يمثل طرفا إسناديا فى الجملة الشرطية فإن من الثابت أنه لا يوجد فى هذه الجملة تطابق ما، سواء من الناحية العددية أو النوعية، إذا يمكن أن يكون (الفعل) فيها مفردا مذكرا أو (الجواب) لا إفراد فيه ولا تذكير ؛ لأن كلا من الفعل والجواب تركيب إسنادى منفصل فى مبناه أن الآخر. ولكن من المحتم أن تلحظ أن كل تركيب من هذين التركيبن الإسناديين يخضع- منفردا-

للضوابط المقننة للتطابق وفقا للتصنيف الذى ينتمى إليه ،سواء كان تركيبا إسناديا اسميا،أو ظرفيا ،أو فعليا.

وبهذا يتجلى أيضا تميز الجملة الشرطية فى موقفها من التطابق من بقية أنواع الجملة العربية.

* * *

خامسا- الترتيب:

من الثابت لغويا أن الترتيب ظاهرة مطردة بين عنصرين من عناصر الجملة الشرطية الثلاثة، وهذان العنصران هما: الأداة والفعل ، وأنه لا مجال قط لتقدم الفعل على الأداة ، وهذا ما قررته القواعد النحوية أيضاً ، لكن ثمة فارقا بين ماثبت لغويا وما تقرر نحويا فيما يتصل بتحديد موقع الجواب فى الجملة، فإن النصوص اللغوية الواردة تجيز تقدم الجواب على الأداة والفعل معا، وإن لم تبح تقدمه على الفعل وحده، وهو ما أخذ به بعض النحاة، أما جمهورهم فإنهم- كما رأينا- يوجبون تأخر الجواب عن الفعل وعدم تقدمه فى الجملة بأى صورة من الصور، وهكذا إذا أخذنا بالمقرر نحوياً تكون الجملة الشرطية واجبة الترتيب فى مجموعها. أما إذا راعينا الثابت لغويا فإنها تكون ملتزمة الترتيب بين عنصريين من عناصرها مرنة الترتيب فى تحديد موقع العنصر الثالث فيها.

سادسا: الحذف:

الأصل فى الجملة الشرطية أن تذكر عناصرها الثلاثة من أداة وفعل وجواب، ولكن من النصوص الواردة ما يكشف عن أن من الممكن الاستغناء عن بعض هذه العناصر متى دل عليها دليل من الموقف أو السياق، ومن ثم تقرر لدى النحاة إمكان "حذف"بعض عناصر الجملة الشرطية، بل تجاوزا ذلك إلى القول بإمكان حذف كافة هذه العناصر اكتفاء بدلالة الموقف عليها، وسنعرض لأهم ما تقرر فى التراث النحوى فى مسألة "الحذف"فيما يلى:

١- حذف فعل الشرط والجواب معا:

أجاز بعض النحاة حذف كل من فعل الشرط والجواب معا متى دل على المحذوف دليل من الموقف أو السياق ، شريطة كون الأداة (إن)؛ "لأنها أم الباب، ولأنه لم يرد غيرها"[١] مستشهدين بقول رؤبة[٢]:

قالت بنات العم يا سلمى وإن كان فقيرا معدما قالت وإن

وبضميمة هذه الخصيصة من خصائص الجملة الشرطية إلى غيرها من الخصائص التى أشرنا إليها، يتأكد أن هذه الجملة نمط خاص ومتميز من أنماط الجملة العربية، سواء فى مكوناتها، أو علاقاته، أو خصائصه، أو ظواهره، فهى جملة متعددة العناصر والأطراف الإسنادية، وهى مركبة دائما، وتركيبها ذو طبيعة خاصة بها، وليست فى مجموعها صالحة للنسخ أو الامتداد أو التطابق، بيد أن كلا من النسخ والامتداد والتطابق أمر وارد بالنسبة للطرفين الإسناديين فيها، وهى - من ناحية - ملتزمة الترتيب ثابتة الموقع ، ومن ناحية أخرى تتسم بقدر من مرونة الترتيب فى مجال تحديد موقع أحد عناصرها، وهى – بهذا كله - نوع من أنواع الجملة العربية، يختلف عن سائر أنواعها.